

الصراع على البروتستانتية بين النزعتين الإنسانية والأصولية



محمد الأشهب
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الملخص:

يدور موضوع هذه الدراسة حول قضية حرية الضمير، داخل الفكر البروتستانتية في صيغته الكلاسيكية؛ حيث نتوقف عند إحدى اللحظات التأسيسية للصراع بين نزعتين متقابلتين داخل المذهب الواحد.

نزعة إنسانية ليبرالية: يتزعمها سيباستيان كاستيلو، داعية التسامح وحرية الضمير، والذي يرفض إقحام الأسلحة المادية في المعارك الروحية، وخاصة ما تعلق بإشكالية فهم النص الديني وتأويله؛ حيث يلح على ضرورة جعل النقاش بصدها، ينأى عن كل تهريب، وتحريض، ورمي بالهرطقة.

ونزعة أصولية: يتزعمها كالفن؛ تدّعي وحدانية فهم وتأويل النص الديني، وضرورة حماية هذا الفهم، وهذا التأويل، من تلبيسات الهرطقة، وإن اقتضى ذلك أعمال السيف والنار في حقهم، حمايةً لإيمان الخراف من افتراس الذئاب.

كتب لهذه النزعة الأصولية الغلبة، في حياة كالفن وبعد وفاته ببضعة عقود، ولكن الكفة مالت، بعد ذلك، تدريجياً لصالح النزعة الإنسانية، التي ربحت حرب التأويل، رغم هزيمة كاستيلو في أولى معاركها.

فأصبحت حرية الضمير بعد توسيع وتقعيد أكبر، جزءاً من المكتسبات الراسخة في الفكر الغربي، فيما صار التعصب الكالفيّ جزءاً من تراث مظلم، يستحضر لديهم من باب الاعتبار وتقدير المنجز.

بيد أن واقع حرية الضمير يصبح معكوساً، عندما يتعلق الأمر بفضائنا العربي الإسلامي؛ فالاستثناء عندهم قاعدة عندنا، وماضيهم؛ هو ما يشغل المساحة الأوسع من حاضرنّا.

حاضرهم؛ هو كاستيلو بعد تهذيب وتشذيب، وحاضرنا؛ هو كالفن في أبشع صورته.

والمأمول؛ هو أن يكون مآل الصراع بين النزعتين عندنا، شبيهاً بما آل إليه الأمر عندهم.

تقديم:

لا نعود إلى تاريخ الغير من باب إرضاء الفضول المعرفي المحض، ولا من باب كسر الروتين الاستهلاكي لتاريخنا نحن، أو لبعض من فتراته التي قتلت بحثًا، تجاوز حدود الإشباع، دون أن تكون هذه التخمّة، بالضرورة، رديفًا للإقناع والاقتناع.

نعود إلى لحظات ومراحل من تاريخ الآخرين؛ لأن هناك دوافع بعضها واضح ومفهوم، وبعضها الآخر لم يخرج بعد من دائرة اللاوعي الثقافي، أو الوعي العفوي، إلى دائرة الوعي النظري، وإن حركنا من طرف خفي.

عندما يتحرر المثقف من قوقعة التخصص الأكاديمي، ويقرر الانفتاح على رحاب الفضاء العام، بهدف الإدلاء بموقفه من إحدى القضايا الحارقة، فإنه يكون محكومًا بطريقة أو أخرى بذرائعية موضوعية، وهو يسلط الضوء على حدث أو واقعة تاريخية، وهي الذرائعية التي تكشف عن نفسها في طريقة الانتقاء، وأسلوب التناول.

نتناول ماضي الآخرين وعيوننا على حاضرننا، نقارن بين ما عاشوه، وبين ما أنجزوه منذ قرون، وبين ما نعيشه نحن ما لم ننجزه؛ فنرى تشابهًا في جوانب عديدة من الوضع المعيش، وبونا شاسعًا بين نجاحهم، وتعثرنا في الإصلاح.

يقرأ القارئ، ممن كان من حسن حظه الانتماء إلى الفضاء الحضاري والمجال الجغرافي الأول تلك الأحداث؛ فيراها جزءًا من ماض حدث وانتهى، وما كتب حول الحدث، قد صار، هو نفسه، جزءًا من معرفة تاريخية.

بيد أن القارئ الذي يقرأ، وهو ابن فضاء متعثر، تفرض عليه المقارنة والمقايضة نفسها، ولو كابر وجاهد عقله جهادًا.

يستنتج من الوقائع والكتابات: أن ذلك الماضي يخاطب حاضره هو؛ فلا غرابة أن يجد نفسه في مؤلفات؛ ديكارت، وإسبينوزا، ولوك، وفولتير، وكانط،... إلخ، فيما تظهر له أطروحات ودعاوى ما بعد الحداثة، وكأنها خطاب غارق في التهويم والكاريكاتورية، أو في أحسن الأحوال، خطاب غير معاصر لنا تاريخيًا.

في هذه المقالة؛ أتوقف عند لحظة من لحظات الصراع على تملك المسيحية، داخل حركة الإصلاح الديني، بين تأويل إنسي، وآخر توراتي، لنكشف أن الصراع على الإسلام، لم نكن فيه بدعًا؛ ذلك أن أنماط التدوين كثيرًا ما تتشابه على مستوى محدداتها الكبرى، حتى مع وجود بعض الفواصل التاريخية النوعية؛ لذا لم يعد مفارقة، أن نلحظ اليوم، كما الأمس (فجر عصر الإصلاح)، نوعًا من التقارب بين مذاهب

ونحل من أديان مختلفة، لا يوازيها سوى هوة نفسية كبيرة، وتباعد صراعي دامي بين مذاهب داخل الدين الواحد؛ بل ودخل المذهب الواحد، كما هو شأن الصراع الذي دار بين بروتستانتين هما: سباستيان كاستيلو (1563/1515)، وكالفن (1564/1509)، وهما موضوع مقالتنا.

كتب لكالفن شخصا ومذهبا الذئوع والانتشار، وأحياناً على يد علماء غير مؤمنين، وكان من القلة، إن لم نقل الوحيد من رجال الدين الإصلاحيين الذي جمع بين يديه سلطتين رهيبتين؛ سلطة الدين، وسلطة السياسة. فيما ظل الأول نبياً أعزلاً، تجاوزت مقولاته السقف التاريخي لعصره، وفي ذلك بعض من أسباب فشله، وفي ذلك أيضاً سبب راهنيته، في أوروبا القرنين (18م- 19م)، وراهنيتها في عالمنا العربي الإسلامي إلى أجل لا يبدو قريباً.

الإشكالية مناط الصراع بين الرجلين:

بدأ الخلاف الكبير بين الرجلين، حول منهج التعامل مع بعض نصوص الكتاب المقدس المخرجة للعقل؛ حيث جنح كالفن إلى تأويلها، فيما رفضها كاستيلو، على اعتبار أنها دست في الكتاب المقدس خطأ، ومن أشهر هذه النصوص؛ ترنيمة الترانيم: التي تعرض بعض المشاهد الأيروتية، التي لا تليق بنص مقدس، حسب كاستيلو، ومكانها الطبيعي يجب أن يكون داخل الأدب الدنيوي، والنص الثاني؛ حول مسألة نزول المسيح إلى الجحيم¹.

لكن هذا الخلاف سيصل إلى ذروته، عندما يختلف الرجلان حول طريقة التعامل مع الهراطقة والمجذفين، خاصة، وأن هذه القضية كانت حارقة آنذاك، لتزامنهما مع ذروة الصراع الديني بين المذهبيين الكبيرين داخل مسيحية أوروبا الغربية.

مدار الخلاف الكبير، إذن، هو حول كيف يجب أن نتعامل مع الهراطقة؟ أي مع كل من خالف فهمنا وتأويلنا لطبيعة المسيح ولنصوص الكتاب المقدس، سواء كان فرداً أو جماعة؟ وباستعارة رمزية من صلب النص المسيحي، كيف نتعامل مع الزوان (نبات طفيلي ضار) في حقل للقمح²؟

1- حول هذا الموضوع الخلاف الأول؛ يمكن الرجوع إلى دراسة أندري غونيل:

André grounelle, Sébastien castillon un adversaire protestant de Calvin, académie des sciences et lettres, Montpellier, 2000, p 3.

2- "يُشْبِهُ مَلَكُوثُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا فِي حَقْلِهِ، وَفِيمَا النَّاسُ نِيَامٌ، جَاءَ عَدُوُّهُ وَزَرَعَ زَوَانًا فِي وَسْطِ الْحِنْطَةِ وَمَضَى. فَلَمَّا طَلَعَ النَّبَاتُ، وَصَنَعَ ثَمَرًا، جِيئَ بِهِ، فَجَاءَ عَبْدُ رَبِّ الْبَيْتِ، وَقَالُوا لَهُ: يَا سَيِّدُ، أَلَيْسَ زَرْعًا جَيِّدًا زَرَعْتَ فِي حَقْلِكَ؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ زَوَانٌ؟ فَقَالَ لَهُمْ: إِنْسَانٌ عَدُوٌّ فَعَلَ هَذَا. فَقَالَ لَهُ الْعَبْدُ: أَتُرِيدُ أَنْ نَذْهَبَ وَنَجْمَعَهُ؟ فَقَالَ: لَا، لِنَأْثَقْلَعُوا الْحِنْطَةَ مَعَ الزَّوَانِ وَأَنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ. دَعُوهُمَا يَنْمِيَانِ بِلَا هَمٍّ مَعًا إِلَى الْحَصَادِ، وَفِي وَقْتِ الْحَصَادِ أَقُولُ لِلْحَصَادِيِّينَ: اجْمَعُوا أَوَّلًا الزَّوَانِ، وَأَحْزَمُوهُ حَزْمًا لِيُحْرَقَ، وَأَمَّا الْحِنْطَةُ، فَاجْمَعُوهَا إِلَى مُخْرَني،» إنجيل متى إصحاح 13، الآية 30/25

هذا الإشكال لم يكن وليد عصر الإصلاح؛ بل بزغ ببزوغ المسيحية.

فمثلها مثل كل دين، ما إن قعدت وسننت، حتى أفرزت، في مجرى اجتماعيتها لأسباب؛ ثقافية، وسياسية، ولغوية، واقتصادية، فرقاً ومذاهب تتساكن حيناً، وتتناحر أحياناً أخرى، الصراع: هو القاعدة والتعايش هو الاستثناء، ونادراً ما كان التعايش نتاج اختيارات مبدئية.

من كان يرى في العهد الجديد قطيعة مع العهد القديم ونسخاً له، عادة ما كان يختار اختياراً سلامياً، يرفض أعمال أسلحة أرضية (العنف المادي) في معركة روحية ضد الهرطقة، وحتى عندما يعود إلى العهد القديم؛ فهو لا يأخذ منه سوى القيم الأخلاقية، التي تتوافق ومبادئ العهد الجديد، ومن هذه المبادئ؛ رفض العقوبات الجسدية في غير الجرائم المادية، فالعهد الجديد، بهذا المعنى؛ له الهيمنة على القديم، فيستحضر ما يوافقه، وينسخ ما يناقضه³.

ومن حكم بالاستمرارية والتكامل، لم يرى نسخاً؛ بل تأكيداً وإقراراً، ومن جملة هذه التقارير؛ وجوب حصاد الزؤان بسيف ونار الدنيا قبل عقاب الدينونة.

فبسياف يوزع الهرطوقي، إن لم تزرعه كلمات المسيح، منظوراً إليها، تأويلاً من زاوية مالك السيف.

في الاتجاه الأول؛ الذي يرى الهرطقة شيئاً روحياً، ولا يمكن القضاء عليه إلا بسلاح من صنفه⁴، سار دي كاستيلو أعزلاً إلا من علمه وقلمه، ليلفي نفسه في مواجهة كالفن المسلح بالعلم والسلطة السياسية، وتنظيم متراص من الأتباع، ونفس كارهة للدنيا، وحاقدة على متعها، ويائسة من خيرية الإنسان.

كره، ويأس، وحقّد، لا نجد له نظيراً سوى عند أوغيسطينوس قبله، وباسكال بعده، غير أن هذين الأخيرين اكتفيا بالنظم، أما كالفن؛ فقد جمع بين المدارس والممارسة، كما يقال.

كلاهما (كالفن وكاستيلو) صاحب مبدأ، فلم تكن خلفيتهما أراستية، تراعي مصلحة الدولة في المقام الأول؛ بل تحقيق هذه المصلحة، حسب الرجلين، يجب أن يكون انطلاقاً من مبدأ لا على حسابه، عكس الأراستيين الذين نافحوا عن التسامح على أرضية السعي إلى استقرار الدولة وازدهارها.

3- انظر، نموذجاً لهذه الفتاوى التي استند إليها كاستيلو في دعم نظرية النسخ:

Sébastien castillon, traité des hérétiques, édition nouvelle chez .A JULIEN, LIBRAIRE –EDITEUR AU BOURGE – DE – FOUR. 1913, p64

يشبه كاستيلو من يود مواجهة الهرطقة بالعنف المادي، بمن يواجه الصاعقة بقشة 48 et 46. Ibid. p

فالتسامح في منظور الأواخر؛ شرّ لا بدّ منه، تجنباً لشرّ أكبر منه؛ هو السقوط في الفوضى وهلاك الجميع، فالتسامح بين مذاهب داخل الدين الواحد، يجد مبرره من خارجه، وكأنّ لسان حالهم يقول: نحن مع الوحدة الدينية، وتسامحنا مع المذهب الآخر، يتم على مضض، خوفاً من الأسوأ، وهو فقدان السلام الأهلي.

أما السلام الأهلي، عند كالفن؛ فلا يتم إلا باستئصال الهرطقة، والقضاء على أصحابها مادياً، وخضوع الجميع لسلطة دينية، يتزعمها رجل دين يزواج بين الموعظة الأمرة والسيف.

فيما ينافح كاستيو عن التعددية الدينية، منافحة رجل الدين الذي يرى فيها إرادة إلهية، تؤكد لها نصوص العهد الجديد من وجهين:

- أفعال المسيح وأقواله، وذرى هذه الأقوال؛ موعظة الجبل.

- غموض بعض النصوص لطبيعتها الرمزية، مما يجعلها حمالة أوجه يستحيل معها الجزم واليقين في صحة تأويل واحد منها، دون باقي التأويلات.

ولو كان المعنى جلياً؛ لما اختلف فيه الأوائل، واستمر الخلاف بينهم عشرات القرون، دون اتفاق.

وإذا عجز الأوائل عن الإجماع، وهم الأقرب إلى المسيح ورسالته، فكيف نطمع اليوم فيما عجز عنه السلف، وبأي حق تسيل الدماء البريئة على أرض نصوص ملغزة، لا أمل في توحيد الفهم بصدها، ولا أمل، أيضاً، في أن تكفّ عن كونها مصدراً يستغل لإراقة الدماء، ما لم يغمر الحب هذه النفوس المتصارعة لتقبل كل الاجتهادات، إلى أن يحكم الدين يوم اللقاء الأكبر.

يقول كاستيلو بكلمات بليغة: «كما أن القتال يتوقف في المعركة عند حلول الظلام⁵، وحتى طلوع النهار، مخافة أن يتسبب الضرب العشوائي في قتل الأصدقاء بدل الأعداء، كذلك عالمنا، يعيش اليوم اضطرابات وشجارات تطول الدين بنوع خاص، ولم يحدث يوماً مثل ما نراه من بلايا وشرور، يفهم منهما؛ أن ليل الجهل قد أدرك معظمنا، إن لم يكن قد أدرك الجميع، وأن الحل الأفضل في غمرة الالتباس هذه، وتشابك الأمور، يكمن في الانتظار والإحجام ريثما يطلع النهار، مخافة أن نقدم في الظلام على فعل ما، قد نندم عليه غداً، فنقول: لم أكن أنوي فعله»⁶.

5- يتكلم عن معارك أمس (العصر الوسيط)، أما معارك اليوم؛ فأصبح فيها الظلام هو لحظة انطلاق المعارك..

6- جون لوكليرك، التسامح في عصر الإصلاح، ترجمة: جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009م، ص 426

يرد كالفن على مناظره بأقوال وأفعال مضادة، وصراع النصوص عملية قديمة قدم الدين التوحيدي، على وجه التخصيص⁷، يبذل فيها كل طرف جهده في الإظهار والإخفاء، لكن الحق؛ أن كاستيلو كان الأقرب إلى الموضوعية والنزاهة الفكرية من خصمه، الذي وجد في الإصرار على وحدة العهدين، منقذاً لنزعة العقاب المادي، يستعيز به عن فقر، أو غموض، أو سلامية نصوص وأحداث العهد الجديد.

عندما يتمسك كاستيلو بدعواه القائلة بغموض النص في بعض مواضعه، كمبرر مشروع للاختلاف؛ فإن كالفن لا يتردد في الادعاء بأن ضميره، ذو المصدر اللدني، قد وهبه نعمة الفصل بين الإيمان الحق والهرطقة، وبين الخير والشر.

وأن هذه الهبة التي أهلتها لإدراك الحقيقة، تلقي على عاتقه مهمة رعاية القطيع، وقتل الذئاب⁸.

فما هو غامض وملغز، عند كاستيلو، يبدو شديد الوضوح عند كالفن.

فقد أتاه الله نعمة بخل بها على خصمه، أوصلته إلى شد الوثاق بين العهدين، ونجد في يوشع بن نون، أسوة حسنة لمن أراد أن يمارس التطهير في المدن والقرى.

مشكلة كالفن مع السلاميين، أمثال؛ كاستيلو، أنهم يتسامحون مع الهرطقات، برفض معاقبة أصحابها عقاباً مادياً دنيوياً، خوفاً من اتهام الكنيسة بالقسوة، في حين، أن وصية الله واضحة بإهلاك القرى، والمدن، والشعوب، وإفناء السكان؛ لأنه بهذه القسوة، ظهر للخالق مدى كرهنا الشديد لمن يحرف كلماته، وبهذه الإبادة، نوقف انتشار العدوى، ونحصد الزؤان قبل أن يتمدد في الزرع، ونهلك الذئاب قبل أن تأتي على الخرفان.

إذن، على المؤمن الحق، واجب الدفاع عن مجد الله وعظمته أمام الهرطقة، بغض النظر عن جميع المشاعر الإنسانية⁹.

7- لدعاة العقاب المادي نصوصهم، من قبيل: قول المسيح: «لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً؛ بل سيفا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها، فأعداء الإنسان أهل بيته» متى 36/34، وهي آيات لم تخلوا بدورها من تأويل، وحملها دعاة التسامح على غير معناها الظاهر. وقوله كذلك: «أخرج إلى الطرق والأماكن المسيجة، وأرغم من فيها على الدخول» إنجيل لوقا، الإصحاح 14، الآية 23. وله أيضاً: «أما أعدائي؛ أولئك الذين لا يريدونني ملكاً عليهم، فأتوا بهم إلى هنا، واضربوا أعناقهم أمامي»، إنجيل لوقا. ولدعاة المحبة والسلام والتسامح نصوص من نفس المصدر، ولنفس القائل: «أريد الرحمة لا الذبيحة، فما جئت لأدعو الأبرار؛ بل الخاطئين» إنجيل متى، الإصحاح 9، الآية 13. «أحبوا أعداءكم، وصلوا لأجل من يضطهدكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم السماوي، الذي تشرق شمس على الأبرار والفجار» إنجيل متى، الإصحاح 13، الآية 44-45. «كل ما تحبون أن يفعله الناس لكم فافعلوه أنتم لهم» إنجيل متى، الإصحاح 7، الآية 12. «من لطمك على خدك الأيسر، فأدر له خدك الأيمن، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضاً»، إنجيل لوقا، الإصحاح 6، الآية 29، موعظة الجبل، قصة جملائيل الواردة في أعمال الرسل.

8- ستيفان زفايغ، عنف الدكتاتورية، ترجمة: فارس يواكيم، دار الفرات، ط1، 2013م، ص 41. والعنوان الأصلي للكتاب "كاستيلو ضد كالفن"، أو "ضمير ضد العنف".

9- نقلاً عن بريان باري «لثقافة والمساواة»، ترجمة: كمال المصري، عالم المعرفة، ع 382، ص 209.

وكل تسامح مع الداء، لا يعني سوى التواطؤ مع الهراطقة في اقتراف الجريمة؛ بل ويصبح هذا التواطؤ بإظهار الرحمة في غير موضعها، أشد من العقاب؛ لأنهم بعفوهم عن الذئاب، يسلمون النعاج المسكينة فريسة لهم.

يتساءل كالفن مستغرباً: «أيعقل، برّبكم، أن يهلك الهراطقة النفوس باسم تعاليمهم الخاطئة، ونظل نمنع السيف، الذي أمر به الله، من ملامسة أجسادهم، أو ترانا نرضى بأن يمزق جسم يسوع المسيح، من أجل أن يدوم نتن العضو؟»¹⁰.

عن هذا السؤال، يجيب خصمه كاستيلو:

لكن من هو الهرطوقي على وجه التدقيق والتعيين؟

ومن يملك صلاحية وأهلية تعيينه؟ وبأي معيار ينزه الحكم (أي كالفن)، نفسه عن أن يكون موضوع تقييم معياري من لدن الآخرين؟

كل فرقة دينية، ومنذ العصر القديم، تعتبر نفسها سائرة على هدي المؤسس وباقي الفرق في ظلال مبين، لا نجاة لهم منه إلا بالدخول أفواجاً في صفوف الفرقة الناجية.

يقول، ساخرًا من عصره وعصرنا، كذلك:

«لا نكاد نجد فرقة واحدة بين كل الفرق التي لم يعد لها في أيامنا حصر ولا عد، إلا وتعتبر الفرق الأخرى هرطوقية، فإذا كنت تعتبر مؤمناً حقيقياً في هذه المدينة، أو المنطقة، فأنت في نظر المدينة والمنطقة المجاورة هرطوقياً، وكأنما فرض على من يريد البقاء في أيامنا قيد الحياة، أن يعتنق من العقائد والديانات، ما يساوي عدد المدن والفرق، تماماً كما يحتاج المسافر من بلد إلى آخر، تبديل عملته يوماً بعد يوم؛ لأن العملة المتداولة في مكان ما، لا تصلح للاستعمال في أمكنة أخرى»¹¹.

في وسط بابلي كهذا، كيف يمكن أن نعرف ونعين الهرطوقي؟

10- نص مقتبس من كتاب جوزيف لوكيرك، التسامح في عصر الإصلاح، ص ص 419-420

11- Sébastien castillon, traité des hérétiques, édition nouvelle chez .A JULIEN, LIBRAIRE –EDITEUR AU BOURGE – DE – FOUR, 1913, p 25. « la quelle chose est manifeste en ce que nous voyons, qu'il n'ya presque aucune de toutes sectes (qui sont aujourd'hui sans nombre) laquelle n'ait les autres pour hérétiques: en sorte que si en cette cité au région tu es estimé vrai fidèle, en la prochain tu seras estimé hérétique tellement, que si quelqu'un aujourd'hui veut vivre, il lui est nécessaire d'avoir autant de fois et religions qu'il est de cité, au de sectes, tout ainsi que celui qui va par pays a besoin de changer sa monnaie soit d'or, car en tous lieux celle –la est bonne, de quelque marque qu'elle soit. faisons ainsi en la religion ayons quelque monnaie d'or, laquelle ait lieu partout, de quelque marque qu'elle soit.

عندما نفشل في تعريف الهرطوقي، يقول كاستيليو، لا نجده في حقيقة الأمر سوى فرقة أو فردا لهما رأي في الدين مختلف عن رأي¹².

وإذا كان لكالفن أن يدعي لنفسه، شرف الحصول على النعمة الإلهية التي ألهمته نوال الحقيقة، فلماذا لا يصح ادّعاء الآخرين من رؤوس الهرطقة تملك نفس النعمة، وإن كانت الحقيقة مختلفة؟

وما المعيار في فصل المقال بينهم؟ هل هو الجمهور؟ فإذا كان جمهور جنيف عصر الإصلاح على سنة كالفن، فما القول في جمهور روما، أو باريس، أو مدريد، أو موسكو؟

إذا تقمص دور الخصم والحكم؛ فبوسع كثير من الرؤوس، تقمص هذا الدور السهل، فيزكون أنفسهم، ويضللون خصومهم.

إذا كان الحشد هو المعيار؛ فإننا نجد أنفسنا أمام حشود لا حصر لها، وكل حشد بزعيمهم فرحون، وحشد كالفن في جنيف الصغيرة لن يصمد أمام حشود باريس، وروما، ومدريد، وموسكو.

وعلى ذكر العلاقة بين الزعامة والحشد، ولأن الشيء بالشيء يذكر؛ فإننا نلمح في العادي من الأحوال، علاقة تأثير متبادل بين الزعيم والجمهور، فلا نكون أمام اتصال ميكانيكي عمودي بين سلطة عليا أمر، ورعية تتلقى، وعليها واجب الخضوع؛ إذ يمارس الحشد شديد الحماس والتنظيم، تأثيراً خفياً أو معلناً، تظهر بعض من ملامحه في سلوك القيادة مسلك الشعبوية، بما هي نزول عند رغبة الجمهور ومسايرته، إلى حدود أبعد مما توقع الزعيم، إلى درجة فقدان السيطرة عليها، وتحمل تبعات أفعالها، بغض الطرف أو بالتعالي بها إلى مستوى الفعل الأخلاقي؛ حيث لا تتوانى السلطة الموجهة، وهي المالكة للنص، عن إمداده بالحجج والمبررات بأثر رجعي.

وأخطر حقول هذا التأثير التبادلي: هو الحقل الديني؛ حيث يجري إضفاء المعنى المقدس على التضحية بالذات والآخر، بتنزيل الذات البشرية، وما دونها، منزلة الوسائل والأشياء قياساً على قداسة الهدف والغاية.

12- «Après avoir souvent cherché que c'est d'un hérétique, je n'en trouve autre chose, sinon que nous estimons hérétiques tous ceux qui ne s'accordent avec nous en notre opinion», p 24.

ومن هنا، خوف كاستيلو من إقحام جمهور واقع تحت سحر الخطابة القاتلة، في خلاف لاهوتي من اختصاص أهله؛ لأن هذا الفعل، في لغتنا المعاصرة، بمنزلة فعل استعداد وتحريض لحسم الإشكالية بطرق غير فكرية، تغطي على ضعف الحجة، وتجنب صاحبها الإقرار برمزية النص وغموضه¹³.

لذلك، صمد كاستيلو بالحجة ضد تيار جارف، عندما أنزلت بالطبيب الإسباني (ميشيل سرفيه) عقوبة الموت حرقاً بتهمة كالفينية هي الهرطقة.

لم يتح لكاستيلو زمن الفاشية الدينية في جنيف، مناخاً عادياً، في حدوده الدنيا، لعرض حججه القاضية برفض إقحام السيف في الاختلافات اللاهوتية، فيما استحوذ خصمه كلفن على كل المجال، وتوسل بكل الوسائل المتاحة لإقناع جمهور مهين سلفاً.

لقد ظل كاستيلو العالم الفقير الزاهد، يكتب خفية وخيفة باسم مستعار، مقالته عن الهرطقة، والتي ظلت نتاج هذا الوضع محدودة في نسخها، وأكثر محدودية في تداولها، خاصة وأنها افتقدت إلى حاضن سياسي رسمي، يمكن أن يتيح لها مجالات للنفاذ والانتشار؛ لأن العصر كان عصر السيف، والقلم ذليل في خدمته.

فلم يكن من الممكن لحركات الإصلاح الديني (بله الأفراد) في هذه الفترة التاريخية، أن تنشأ وتتطور، إلا إذا سمح بها اللورد الحاكم في المنطقة؛ فتكون النتيجة، هي: "أن الحركات الأولى، لا بد أن تأتي من الحكام المدنيين أنفسهم"، كما يقول سكينر¹⁴.

وحيث إن كاستيلو لم يكن من أصحاب النفوذ السياسي ولا المالي، ولا ينحدر من أسرة مالكة لهما، ولم تحتضن دعوته من طرف سلطة رسمية، ورأسماله الوحيد كان سلطته العلمية، في زمن لم يكن يعلو فيه صوت على صوت المعركة، كما يقال؛ فإن سياقاً كهذا، بمتاحه الضيق جداً، لم يكن فيه من معنى ولا مكان لتساؤل ج. ج. روسو، ذي الطبيعة الأخلاقية، عما إذا كنا منصفين في حق من خالفنا الرأي، إلى حد السماح برواج كتبه بيننا وعرض أقوى حججه على وجهها الصحيح؟

فخناق السلطة وسداجة الأتباع، تجعل هؤلاء في حالة اكتفاء بسماع علماء مذهبهم أو حزبهم، دون أن يتساءلوا: هل كان كالفن يتوخى الإنصاف، ولا يبدأ بتشويه أقوال الخصم قبل تنفيذها؟

13- يمكن أن نرى في توسل حنابلة بغداد، مثلاً، بالعمامة في التشهير بالمخالفين، سواء كانوا متصوفة أو شيعة، أو متكلمين، أو فقهاء، ومفسرين، وملاحقهم وتصفياتهم أحياناً. النموذج النظير في ثقافتنا العربية الإسلامية لخطة الإقحام الكالفينية، فكما كانت القاعدة الاجتماعية لاتباع العقيدة الصراطية أوسع، ضاق مذهبهم بالمخالفين، ومال إلى القمع أكثر. كما يمكن أن نرى في نقد ابن رشد للمتكلمين، بسبب التشويش، والبلبل، والاضطراب، وتعكير السلم الأهلي الذي أحدثته مناظراتهم، ومواقفهم الكلامية، بعد ذبوعها بين العوام، النموذج النظير لموقف كاستيلو من حدود النقاش اللاهوتي.

14- سكينر، أسس الفكر السياسي الحديث، الجزء الثاني، ص 146

والنتيجة كما يقول روسو: إن الغائب¹⁵ دائماً محجوج، والبرهان الواهي إذا قيل بحزم واطمئنان، يرجح على آخر أقوى إذا ما عرض¹⁶ بتهكم واستخفاف¹⁷.

كان كالفن زعيم حركة جماهيرية، وهي، ككل الحركات من نفس الحجم، لا يمكن أن تقوم من غير تشويه متعمد، يغير الحقائق، ويجعلها تجتذب الأتباع، وتجعلهم متحمسين ومخلصين حتى الموت¹⁸؛ ففي غياب الصوت الآخر، يتصرف الحاضر الماسك بالجمهور في حجه وحجج خصمه كما يشاء، فيؤولها بما يخدمه، ويضمن تماسك الأتباع وولائهم، وهو مطمئن إلى عجز خصمه، المغيب قسراً عن الحضور.

الحاكم ومسألة الحياد الديني:

يقول كاستيلو في قضية سرفيه¹⁹، التي انتهت نهاية مأساوية، وصارت جزءاً من الذاكرة السوداء لحقبة الحروب الدينية: "لو أن سرفيه سعى إلى قتل كالفن، لكان فعل الحاكم حسناً بحماية هذا الأخير، أما وقد حارب بالكتابات والحجج؛ فقد لزم دحضه بمثل هذه الحجج والكتابات"²⁰.

مهمة الحاكم، إذن، تقتصر على ردع العنف المادي، غير الشرعي، بعنف شرعي، وذلك لحماية الأنفس والممتلكات.

لا يعمل سيفه إلا ضد من أراد الاستحواذ على هذا السيف من الرعية، ليعمله في أحد الرعايا أو بعضهم، ضارباً عرض الحائط قداسة الحياة وهيبة السلطة، وليس من شأنه التدخل في نقاش لاهوتي، ينتصر فيه لطرف، ويوظف وسائل السلطة في تعميم اقتناعه على المجموع، عملاً بالقاعدة السيئة الذكر: "الناس على دين ملوكهم".

15- وهو سباستيان كاستيلو في مقالتنا.

16- والعرض، هنا، هو كالفن، يتحدث باسمه وباسم خصمه.

17- ج.ج. روسو، دين الفطرة، تعريب: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2012م، ص ص 95- 106

18- إريك هوفر، المؤمن الصادق، ترجمة: غازي القصيبي، منشورات كلمة، 2010م، ص 173

19- طبيب إسباني أنكر الوحدة الجوهرية بين الأب والابن، واشتهر كأحد أهم ضحايا كالفن، إن لم يكن الوحيد، وقد غطت صورته في التاريخ على باقي الضحايا، وهم أكثر، كان من دعاة التقارب بين الأديان، وقد شكلت طبيعة المسيح ولقب أمه، أخطر القضايا التي تفرقت فيها المسيحية إلى شيع وفروق يفتك بعضها ببعض، وتتبادل بينها تهم الهرطقة، وإنزال الحرم.

حول تفاصيل مأساة الطبيب سرفيه، انظر مثلاً: J. ROUQUETTE, LES VICTIMES DE CALVIN, PARIS LIBRAIRE BLOUDET, 1906, p 42-ET CIE.

20- جوزيف لوكليرك، التسامح في عصر الإصلاح، ص 446

إن حياد الحاكم في غير ما له علاقة بالأمن والرخاء المادي، لا يعني إحجامه عن الميل إلى رأي ما اقتنع به ضميره، وكأنه آلة صماء؛ فذلك من المحال لمن يتصرف كإنسان مؤمن، انتصر عن وعي لإحدى هذه الآراء.

فالواجب في حقه: هو اتباع هذا الرأي؛ لأن ضميره الحرّ أفضى إليه.

بيد أن الخطر كامن في التسلح بوسائل الإكراه المادي، التي تتيحها له سلطته السياسية لإحلال الأحادية المذهبية مكان التعددية، وبعبارة كاستيلو: "إن الدفاع عن العقيدة، ليس من اختصاص الحاكم"، وعليه، يخلص إلى أن حرق سرفيه يمثل جريمة، لا دفاعاً عن العقيدة (أي جهاداً في تقليدنا).

ومهما تذررت الجريمة بغطاء اللغة الدينية، لتتستر عن طبيعتها الحقيقية؛ فإن الضمير المسيحي الذي تشرب إنسانية وسلامية المسيح، لن يرى في حرق سرفيه دفاعاً عن الدين؛ وإنما قتل إنسان أعزل إلا من قلمه وقوله²¹.

فالإيمان والإكراه، ضدان، لا يحضر أحدهما إلا في غيبة الآخر.

لقد أحرق سرفيه، بذريعة حفظ إيمان القطيع من هذا الذنب، لكن حفظ الإيمان، عند كاستيلو، غاية شريفة لا تتحقق بهذه الوسيلة الشنيعة، "لا يحمي المرء إيمانه بحرق شخص آخر، ولكن يتحقق باستعداده؛ لأن يُحرق في سبيل إيمانه"²²؛ فإيمانه كامن في استعداده للتضحية بنفسه، بدل التضحية بالآخرين.

مات سرفيه هرطوقياً محروماً، في عرف السواد الأعظم من؛ الكالفينيين، واللوثريين، وحتى الكاثوليك، ولكنه في عرف آخرين مات شهيداً؛ لأنه رفض مخالفة ضميره.

سحر اللغة المقدسة:

هذه الثنائية العجيبة (هرطوقي/شهيد، مجاهد/معتدي كافر)، كان ولا يزال لها مفعول السحر، تمنح بموجبها جماعة القاتل أو المقتول، وبلعبة لغوية بسيطة ولكنها هائلة التأثير، تمنح لأعضائها صك الأمان والفوز بالجنان؛ فهو مجاهد لا قاتل إن قتل، وهو ما يعفيه من شقوة الضمير؛ لأن المقتول ممن يتقرب إلى الله بدمه، وإن قُتل (بضم القاف) هذا المجاهد في معركة أراد أن يقتل فيها أو قتل إلى أن قتل؛ فهو شهيد وقاتله من الملعونين في الدنيا والآخرة.

21- «Tuer un homme, ce n'est pas défendre une doctrine, c'est tuer un homme» cité in Charles bost: Sébastien castillon et l'opposition protestante contre Calvi, revue générale 1914 ;n 10, p 321.

22- «on maintient pas sa foi en brûlant un homme, mais en se faisant brûler pou elle» cite in Charles bost, p 321.

في لغة الإصلاح الديني الأوروبي؛ جرى التعبير عن هذه الثنائية بالصيغ الآتية:

- ضحايا الكاثوليكية (أي من كانوا على المذهب الكاثوليكي)؛ هم هراطقة مجدفين، وضحايا البروتستانتية؛ شهداء.

- ضحايا البروتستانتية (من كانوا على غير المذهب البروتستانتية)؛ هراطقة، وضحايا البابوية؛ شهداء.

- في حالة كالفن، يكون ضحاياه هراطقة، والضحايا من مذهبه شهداء، ما حل بالخصوم عقاب، وما أصاب الأتباع ابتلاء.

بلعبة لغوية بسيطة، ينتقل القاتل والمقتول من حال إلى حال، وكأن للغة سحرًا مستقلًا عن أية فاعلية إنسانية، تفعل فعلها في دماغ مغسول بأدوات الشمولية، حتى صارت تتمثل البئر وكأنه العالم.

إن أسوأ ما يحيق بهذا الدماغ المغسول، في منظور كاستيلو، فقدانه لكل قدرة على الشك المعرفي، فيصبح المؤمن سعيدًا بكسله المعرفي، الذي يرادف في عرفه اليقين العقدي الجازم، فيما هو، عند كاستيلو: يقين قاتل، "إذ لو شك المسيحيون في أنفسهم قليلًا، لما اقترفوا كل هذه الجرائم"²³.

فاليقين الأعمى، الذي يشعر معه صاحبه بوهم السكينة الداخلية كثيرًا، ما أفضى إلى دمار الهيئة الاجتماعية، فليس هناك من علاقة طردية بين سكون النفس وسكينة المجتمع؛ بل الغالب في المجتمعات وحدانية السلطة، والفكر أن تكون العلاقة عكسية، على قدر زيادة اليقين يزداد الخطر.

هو اليقين الذي يدفعنا إلى التعجب الساخر من أناس على غير ملتنا ومذهبنا، أن لهم أن يعتقدوا في هذه العقائد المضحكة، ويرفضوا اعتناق ديننا ومذهبنا؟ أليس في ذلك آية من آيات مكابرتهم، وعنادهم، وإصرارهم على الباطل بعد أن تبين لهم الحق؟

هو اليقين الذي يدفعنا إلى إدخال الآخرين عنوة في ملتنا، وهو إكراه لا يتذرع بالكراهة؛ بل بمحبة الخير له، وطلبًا لنجاته، ولو على حساب ضميره.

فإن أبى؛ فعليه أداء ضريبة رفض الحق، أو قطع الرأس، يخير المسكين بين التحول أو الدفع، وفي حالة كالفن؛ لا يوجد حتى هذا الترف الذي سمّي تخييرًا، على ضيقه؛ بل عليه واجب الإيمان بمذهب شديد الدقة والصرامة في بنوده، أو الموت، ولا يُسأل الهالك: كيف يقتل؟

23- جوزيف لوكيرك، التسامح في عصر الإصلاح، ص 450

فكالفن كان حريصاً على أن تكون طريقة القتل في شناعتها، عبرة للأحياء²⁴.

يشبه كاستيلو هؤلاء المكرهين في الدين (بكسر الراء)، والابتزاز المادي؛ هو وجه من وجوه الإكراه: مثل معنوه لديه برميل كبير يحوي القليل من الخمر، فعمد إلى ملئه ماء بهدف الحصول على المزيد من الخمر²⁵.

فالرغبة في تكثير سواد الفرقة الناجية، تدفع ملاك الحقيقة الدينية في نسختها التبشيرية النضالية، إلى جعل التمدد العددي والمباهاة بالكثرة هما الغاية والمراد؛ فهل نتعجب اليوم من هذه النزعة الاستعراضية؟ (خاصة في صفوف المسيحيين والإسلاميين النضاليين) والاستقواء بالجمهور؛ بل وجعل هذه الجماهيرية حجة من الحجج المهمة، القابلة للتوظيف في إفحام الخصم؟

هذه حجة تضاف إلى سابقتها القديمة، التي تقول: (بيننا وبينكم الجنائز)، فإذا عجزت مراسيم الحياة عن الهداية والإفحام؛ فإن مراسيم الموت ستظهر لكم؛ من الضال؟ ومن هو على صراط سوي؟

يموت البابا فيقال للخصوم: تركنا لكم مهمة عدّ المشيعيين.

يموت مارتن لوثر كينغ، وغاندي، وماو، وستالين، وجمال عبد الناصر، وابن باز، ... إلخ، فيتكرر الفعل نفسه.

شخص لا يجمع بينها جامع، فرق بينهم الدين، أو المذهب، أو الانتماء الحزبي، أو العرقي الجنسي، لكن ميكانيزم المؤمن الصادق، يقوم على إكبار جنازة زعيمه، وغض الطرف عن جنازة المخالفين تجنباً لكل تشويش.

فإن فرضت الصورة نفسها، استدل بعدم طردية العلاقة بين الكثرة واعتناق الحق؛ بل يرى أن الأصل في الكثرة الكاثرة؛ هو الميل عن جادة الحق، وأن خير ما قيل في تعريف الجماعة، أنها: (الحق ولو كنت وحدك).

ألا يرى السنة، عندنا، في غلبتهم العددية، دليلاً على صحة مذهبهم. فيما يرى الشيعة في قتلهم، دليلاً على تفردهم، وضريبة لصبرهم وثباتهم ضد عنف الأمويين وأحفادهم؟

24- «pareils monstres doivent être étouffés comme fis ici à l'exécution de Michel Servet espagnol. à l'avenir; ne pensez pas que personne s'avise de faire chose semblable».

مقتطف من رسالة كالفن لأحد المقربين، نقلًا عن روكيت، جرائم كالفن، ص 15. (بالفرنسية).

25- جوزيف لوكليرك، ص 618

في حالة كاستيلو؛ سيصل الاعتبار بالحشد إلى ذراه؛ فقد مات هذا العالم الورع فقيراً معزولاً، وقد شيعه إلى مثواه رهط قليل من المحبين، فيما شيعت كالفن الرهيب، ألوف مؤلفة.

يقول الكالفييني: انظروا إلى الجنازتين؛ لتستبينوا طريق الله من طريق الشيطان؟

أوليس ذبوع اسم كالفن، وخفوت اسم كاستيلو؛ آية أخرى من آيات العدل الإلهي؟

حتى المؤرخ الوضعاني، لا يجد في تاريخه موضعاً لمن لا أثر له في عصره، والعصور التي تليه، ومعيار ذلك؛ كثرة الوثائق، وذبوع الصيت، ولا شك أنه بهذا المعيار ستكون هزيمة كاستيلو مضاعفة.

هزمت لغة الدم في عصره، فأودت به إلى هزيمة ثانية بلغة العلم، وبطلها المؤرخ الرافع لشعار: "حيث لا وثيقة لا يوجد تاريخ".

والمفارقة: أن عصر التنوير، أعاد الاعتبار إلى فكر الرجل دون اسمه، في الوقت الذي استمر علم كالفن شامخاً، حتى بعد أن نسخت الدولة المدنية نظامه الديني، الذي عدّ من أبشع الأنظمة الدينية في تاريخ البشر.

نظام لم يبرزه في شموليته القاتلة، سوى نازية، وفاشية، وستالينية القرن العشرين، ولحسن الحظ؛ فقد نقصته التقنية التي تملكها هذه الأنظمة، وإلا كان الخطب أعظم، خاصة إذا ما علمنا؛ أنه كان من المفضلين لمبدأ "معاقبة بريء أفضل من نجاة مذنب".

الجريمة والعقاب:

ويكفي أن نطلع على لائحة الجرائم التي كان يعاقب عليها النظام الثيوقراطي في جنيف؛ لنستنتج، بقليل من التخمين المستقبلي، المآل المرعب، لولا حظ فقدان أدوات تحكم على جانب كبير من التطور، الذي لم نعدم كما أسلفنا، صوراً وتجليات له في القرن الماضي، وإن تدثر هذه المرة بغطاء الجدل المادي، وتفق العرق، وتقديس الدولة والأرض.

ومن هذه الجرائم التي تقود إلى الطرد من المدينة، أو السجن والتعذيب، وربما إلى الموت، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- عبادة الأوثان: وتعني في الغالب؛ الانتماء إلى المذهب الكاثوليكي، الذي كان ينعت أتباعه بعبدة الأوثان، وعقوبتها الموت.

- الزنى، وعقوبتها الموت.
- السحر، وعقابه الموت.
- الهرطقة، وعقابها الموت.
- ضرب الابن أبيه، وعقوبته الموت.
- التعريض بالذات الإلهية، وعقوبته الموت.
- التعريض بالذات الملكية، وعقوبته الموت كذلك²⁶.
- امتلاك كتب تخالف مذهب كالفن، وعقوبته السجن، أو الطرد من المدينة.
- ثلاثة أيام سجن لمن يغني أو يرقص في حفلة عرس.
- السجن للاعب الورق.
- السجن لمن تغيب عن خطبة كالفن.
- عدم التزام النساء بمعايير محددة ودقيقة في اللباس وتصفيف الشعر.
- ضبط عشيقين في أحد متنزهات المدينة.
- ممارسة الفنون والرياضة، وتملك لوحات فنية يستشف منها روح الوثنية الكاثوليكية.
- الضحك أثناء مراسيم المعمودية، وعقوبتها سجن ثلاثة أيام.
- النوم أثناء العظة، وعقوبتها السجن كذلك.
- امتداح عمل فكري لأحد خصوم كالفن.

26- J. ROUQUETTE, LES VICTIMES DE CALVIN, PARIS LIBRAIRE BLOUD ET CIE, 1906, p 9. «peine de mort pour l'idolâtri, peine de mort pour l'adultère, peine de mort pour le sorcier, peine de mort pour l'hérétique; peine de mort pour le fils qui frappe son père; peine de mort pour le crime de lèse-majesté divine; peine de mort pour le crime de lèse- majesté humain».

- مخاطبة كالفن بعبارة السيد عوض المعلم، أو سبّه، والعقوبات تتراوح بين السجن أو السجن والتعذيب، أو التعذيب والطرده من المدينة، أو الإعدام.

- الغناء في الشارع، وعقوبته الطرد من المدينة.

- الأكل في الشارع.

- السحر، وعقوبته الموت.

- تضمن وجبة الطعام لمكونات محرمة في مذهب كالفن²⁷.

من الواضح؛ أن كل نظام ديني على شاكلة النظام الكالفيني (وله أشباه عندنا)، يبالغ في تقنين وتسنين العقيدة والممارسة، ولا يمكن إلا أن تعلق في مناخه أسهم الرمي بالهرطقة، وإنزال الحرم، مقابل تضائل حتى في تلك الهوامش القليلة التي تسمح بالتفكير، ولو في الفروع ذات الأهمية الثانوية، التي هي في العادة شأن النخبة العالمية، ولا أثر لها في تمثلات وممارسات العامة من المؤمنين على مستوى تدينهم اليومي.

بيد أن التاريخ مليء بالأحداث والوقائع التي قتل فيها مئات الآلاف من العامة على مذبح تفاصيل لاهوتية جزئية.

لم تكن المخابرات الدينية للنظام الكالفيني، تتورع عن استخدام كل الوسائل القادرة على اصطيد الهراطقة والعصاة²⁸، بما فيها طرق خصومها الكاثوليك، وتحديداً، الدومينيكان منهم، ورواد محاكم التفتيش الذين لم يتورعوا عن استجواب الأطفال الصغار، والأخذ بشهادتهم في توجيه التهم وإنزال العقاب؛ بل وتحويل الأطفال إلى جواسيس على آبائهم. وتجربة اليهود والموريسكيين في إسبانيا، والهرطقة في إيطاليا، تقفا كشاهدتين على هذا السبق، الذي سيبلغ قمته مع شموليات القرن العشرين، وخاصة في النسخة الشيوعية منها.

27- ستيفان زفايغ، عنف الدكتاتورية، ترجمة: فارس يواكيم، دار الفرات، ط1، 2013م، ص ص 67-68. والعنوان الأصلي للكتاب "كاستيلو ضد كالفن" أو "ضمير ضد العنف". انظر، أيضاً: عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الأول من المجلد الثاني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط1، 2015م، ص 273. وانظر كذلك: J. CALVIN DE VICTIMES LES, ROUQUETTE, 13-10 p.

28- كما لم يتورع كالفن عن التعريض بالسلوك الأخلاقي لكاستيلو عندما نعت به سارق الخشب، وهو تعريض عادة ما تلجأ له النظم الشمولية والاستبدادية، لتدمير السمعة والمكانة الرمزية لمعارضيه، فلا أفضل للسلطوية، ولا أشد على خصومها من التشويه الأخلاقي؛ فهو بمثابة قتل معنوي قبل الإجهاد عليهم مادياً. ومن الواضح؛ أن تهمة من هذا القبيل (سرقة الخشب) لا يمكن أن تصدر إلا من شخص أصيب بهوس البحث عن مثالب خصمه، فلما عجز عن إيجاد ما يشين سلوكه الأخلاقي تعلق بالخشب. انظر حول هذا الاتهام الموجه لكاستيلو: المقدمة التي كتبها Eugène Choisy لرسالة كاستيلو عن الهراطقة. وكذلك: «كتاب ضحايا كالفن»، جون روكيت، بالفرنسية، ص 57.

دراسة جورج بلاسجير بعنوان: "reformé" jean Calvin, la reforme a Genève et les débuts de le reforme en France, éditio reformé, 2004, online.

«quand la haine s'en mêle et quand la haine est impuissante, elle recourt a l'arme des faibles, la calomnie»

حتى النظام الكالفيني، أسوة بعوده البابوي، قام باستجواب الأطفال وأخذ بشهادتهم، كما أخذ بشكوى المجهول في تحريك المتابعة والتحقيق.

الدولة والكنيسة:

لم يقبل النظام الكالفيني (الكلاسيكي)، على مستوى التصور السياسي، أي فصل بين سلطة الله وسلطة القيصر، وإذا كان قد دافع عن استقلالية الكنيسة تجاه الدولة؛ فذلك بغرض وضع الدولة تحت سلطة الكنيسة، وجعلها خاضعة في قراراتها لرقابة هذه المؤسسة الدينية، كما الأفراد خاضعون في تصرفهم لمراقبتها وعقابها. ومن ثم، لا فرق بين الشخصية الحقيقية والشخصية المعنوية من حيث الاشتراك في التبعية²⁹.

وإن وجدت دعوى للتسامح والفصل بين السلطتين عند كالفن؛ فهي لا تكون إلا من موقعه كناطق رسمي باسم أقلية مضطهدة، شرط أن تكون على مذهبه³⁰، فإن صارت الأقلية أغلبية نسخت الدعوى بنظام على شاكلة ما عرفته جنيف تحت حكمه، وصار كالفن المتسامح "مموئاً للجلادين" كما نعته ميشيله في وصف بليغ³¹.

ووجب، هنا، التنبيه إلى ذلك الخطأ، الذي شاع كنوع من الصورة النمطية المدرسية عن حركة الإصلاح الديني باعتبارها نصيراً للتسامح، فيما أغلب الوقائع والكتابات الإصلاحية تنطق بعكس ذلك.

كان التسامح الإصلاحي يرفع في وجه الكنيسة الكاثوليكية، قصد التحرر منها دون خسائر ملموسة، بيد أنه لحظة ميلاد كنيسة جديدة على النمط الإصلاحي، كانت تجري إعادة إنتاج نفس المنطق في التفكير، وإن اختلفت الأفكار والسلوك تجاه المخالفين.

وهو ما يعبر عنه (جون ستيوارت ميل) خير تعبير بقوله: "هؤلاء الذين كان لهم السبق في الإفلات من الكنيسة التي كانت تدعو نفسها الكنيسة العالمية، لم يكن لديهم، بصفة عامة، استعداد للسماح بوجود اختلافات في الآراء الدينية، بدرجة لا تقل عن عدم استعداد الكنيسة ذاتها لذلك"³².

29- Gilbert VINCENT, LIBERTE DE CONSCIENCE, TOLERANCE ET PROTESTANTISME in La liberté de conscience dans le champ de la religion, éds patrice meyr-bich, Jean-Bernard marie, institut interdisciplinaire d'éthique et des droits de l'homme. université fribourg, 2002, p 61.

30- Ibid, p61.

31- Charles bost, Sébastien castillon et l'opposition protestante contre Calvin, p 307.

32- نقلاً عن بريان باري في الثقافة والمساواة، ص 210

وفي الوقت الذي لا يقبل فيه كالفن أي تسامح مع الهرطقة، فإنه يدعو إلى طاعة غير مشروطة للحاكم، مهما بلغت درجة فجوره وشره، مخافة الفتنة والفوضى³³، وهو تبرير لا شك أن له نظائر وأشباه في فقهاء السياسي الإسلامي، قديماً وحديثاً؛ حيث لا يتورع الفقيه من أصحاب هذا المذهب على رفض الخروج على الحاكم، والحث على وجوب طاعته والصبر على آذاه، وفي الوقت عينه؛ يشدد قوله على المخالفين من غير ذوي السلطة، داعياً ولي الأمر إلى تخليص الرعية من أصحاب البدع والأهواء.

الأثر العكسي لرسالة كاستيلو:

لقد كان لرسالة كاستيلو عن الهرطقة، والتي سلكت مسلك النقاش العلمي المحض، والتزمت بأخلاق المحاور، أثراً عكسياً في الجهة المقابلة، ذلك أن وتيرة التهجم والتصلب قد زادت، وتركزت بشكل أكبر على صاحب الرسالة عوض الرسالة، وهو نوع من ردود الفعل التي يمكن فهمها على ضوء نمط الشخصية المتطرفة، التي يتعذر، في العادي من الأحوال، تغيير قناعاتها أو زحزحتها عنها بالمنطق والنقاش؛ لأن كل رهانها قائم على هذا التصلب، خاصة إن كانت قائدة للجمهور، ومن ثم؛ فهي تخشى بعبارة إريك هوفر أنصاف الحلول؛ ولذا يستحيل إقناعها بالتخفيف من حدة إيمانها المطلق بعدالة قضيتها المقدسة³⁴.

وكما زاد ضحاياها على مذبح هذه الدوغما القاتلة، ازدادت حاجتها أكثر إلى الإيمان بمبادئها، باعتبارها الحقيقة المطلقة، فهذا الإيمان وحده القادر على أن يغفر لها ما ارتكبته من جرائم؛ بل وتحولها إلى أفعال جهادية مأجورة، وعلى أن تبقى طاقتها متأججة³⁵.

وهو الإيمان الذي يحررها، بسبب القطيعة بين الديني والأخلاقي، من كل التزام آخر تجاه المجتمع والأفراد الآخرين، ويدعم لديها الشعور بأن الله قد أصبح ملكها ومعها ضد كل الناس الآخرين³⁶.

من زاوية نفسية معرفية قد لا يشكل ظهور دلائل، يمكن أن تشوش جدّاً على عقيدة المتطرف القاتلة، فرصة له للمراجعة والنقد الذاتي؛ بل تدعوه إلى مزيد من التماسك والإصرار.

لأن تضخم الذات بمفعول الجمهور، يحذر من أن خسارته الآتية من التعديل والاعتراف بالخطأ، ستكون جسيمة بالمقارنة مع الإصرار القاسي على قتل النداء الآخر في الذات، وتسكينها وتحسينها بمزيد

33- انظر تفاصيل هذا الطرح عند كالفن: ضمن الجزء الثاني من كتاب سكينز، أسس الفكر السياسي الحديث، ص 320 وما بعدها.

34- إريك هوفر، المؤمن الصادق، ص 138

35- نفس المصدر، ص 163

36- برهان غليون، نقد السياسة: الدولة والدين، المركز الثقافي العربي، ط4، 2007م، ص 402

من أدوات مقاومة الإقناع، كأفضل جواب على التنافر المعرفي، الذي قد يسقطه في النسبية، وتعليق الحكم إلى غاية التبين العميق.

وهو ما يخشاه المتطرف؛ لأن عداوته لمخالفه لا تكتفي بالتجاهل واللامبالاة والازدراء؛ بل هي عداوة نشيطة، ترى في العنف اللفظي والمادي خير وسيلة لحماية الذات من الآراء الهرطوقية، ولو كان أصحابها فرادى مسالمين.

غير أن التجاهل ليس هو الميكانيزم الدفاعي الوحيد الذي يركن إليه المتطرف؛ فهناك، أيضاً، تقنية التأويل، التي لا تلغي عنده مبدأ التمسك بحرفية النص؛ بل هي أداة لإنقاذ النص العنيف من نص آخر يمكن أن تهدد حرفيته بنيانه العدوانية، وهنا، يجري تأويل النص المشوش، ليتناسب مع حرفية النص القاتل.

وإذا طبقنا هذا المبدأ على المعاملة الكالفينية للهرطقة، أمكن القول: إن العهد الجديد قد جرت قراءته بمنظار العهد القديم، وهي القراءة الوحيدة التي كانت تسمح بتبرير ديني لمعاملة هؤلاء بوحشية.

قوة المرافعة الإنسانية وحدودها:

ينطلق كالفن وكاستيللو من نفس المثال، لكنهما يحملانه معاني متناقضة؛ فالأول مع التعجيل بالعقاب المادي للهرطقة. والثاني؛ مع تأجيل الفصل في هذا النوع من الجرائم إلى يوم الحساب؛ لأن طبيعتها تجعل البث فيها اختصاصاً إلهياً حصرياً، لا يقبل التفويض ولا النيابة، إيماناً منه بأن العقاب من جنس العمل، والفرق المسيحية لا أهلية لها لإنزال العقاب؛ فكل واحدة تدعي امتلاك الحقيقة وتعريف الهرطقة، بما يناقض تعريفات الآخرين، وحيث لا وجود لحكم دنيوي محايد وجب التوقف؛ لأن الخطأ في الإبراء أفضل من الخطأ في العقاب.

والأفضل بتعبير كاستيللو: "ترك مائة أو ألف هرطوقي على قيد الحياة، من قتل شخص خير تحت يافطة الهرطقة"³⁷.

وحتى إذا ما سلمنا، جدلاً، بقدرتنا على تعيين الهرطوقي؛ فإنه إن كان على خطأ اليوم، يمكن أن يعود غداً إلى طريق الصواب، ولكن قتله يقضي على هذا الاحتمال³⁸، وإذا وقع القتل، استحال على القاتل، إن تبين جرمه، أن يعوض بشكل تناسبي ما يكفر به عن جريمته.

37- Castillon, p 7.

38- Op.cit, p 48.

بيد أن الملاحظ بعد تأمل في المثال الذي كان مدار خلاف وصراع في التأويل بين الرجلين؛ أنه لا يطابق في عمقه الواقع البشري كل المطابقة، وإن لم يخل من عبرة، ذلك أن الفلاح أو كل خبير بشؤون الزراعة، يمكنه التمييز بين القمح والزؤان، وهما مستقلان عن هذا المعطى الطبيعي، ولكن الواقع البشري أعقد من الواقع الطبيعي بما لا يقاس؛ لأن القاضي عادة ما يكون خصماً، فلا يجد غضاضة في ادعاء أنه وفرقه يمثلان القمح، ومخالفوهم هم الزؤان؛ فالواقعة البشرية عكس الواقعة الطبيعية سألقة الذكر، فلا نجد فيها مسافة بين الذات والموضوع؛ فالذات منخرطة في صراعات صريحة أو ضمنية، واعية أو لا واعية، يتعذر معها أن ينصب أحد نفسه في القضايا العقدية والفكرية، مكان الفلاح أو الخبير الزراعي.

ومن ثم، فإذا كان معنى التسامح في العصر الوسيط، يفيد التفضل والمن على المخالف بقبوله على مضض، ما دمنا على يقين من ضلاله؛ فإن مبدأ الاحترام أصبح يفرض اليوم النظر إلى المخالف، نظرة المكافئ في الإنسانية، لا تنزل به وجهة نظره المختلفة إلى منزلة دون منزلتي؛ لذا لم تعد هناك حاجة، وفق هذا المبدأ، إلى أن يكون هذا الشخص موضوعاً لتسامحي.

إن منطوق التسامح، إذا قرئ في السياق المعاصر، وعلى ضوء الفتوحات التي تحققت في مجال حقوق الإنسان، يصبح بتعبير حسن حنفي (استبداداً)؛ لأنه يزعم لنفسه حق منح حرية الضمير لمن يخالفه، مثله مثل المتعصب الذي يزعم لنفسه حق منعها³⁹.

لا نبالغ إن قلنا: إن مضامين دعوى التسامح عند كاستيلو، قد تجاوزت سقف عصره وشروطه التاريخية؛ ففكره تجاوز حدود المتاح تاريخياً؛ حيث كان، حينها، أعز ما يطلب هو السلم والاستقرار على قاعدة "الناس على دين ملوكهم"، وأن حرية الضمير لم تكن تعني أكثر من الحرية الداخلية، دون أن تتجاوزها إلى المجاهرة بالطقوس والشعائر التعبدية، إذا ما شاء سوء حظ الفرد أن يتواجد وسط أغلبية على مذهب آخر، فضلاً على أن كل النقاشات التي دارت بين التيارات الكبرى الممثلة للمذاهب الكبرى، انصبت حول مدى إمكانية وجود الحرية الدينية داخل الدين الواحد، أما حرية الانتقال من دين إلى آخر؛ فقد كانت في دائرة اللامفكر فيه، وموقف كاستيلو الداعي إلى التسامح مع المسلمين واليهود، كان من الشذوذ، حيث يندر أن نجد في قرنه والقرن الذي يليه من وقف موقفه⁴⁰.

ومن ثم؛ فهو خليف بأن يعد رائد الليبرالية البروتستانتية قبل لوك بأكثر من قرن، والفارق أن كاستيلو، باعتباره عالم دين حاول أن يؤصل لهذه النزعة، انطلاقاً من مقاربة لاهوتية صريحة، فيما يغلب التناول

39- حسن حنفي ضمن كتاب، أضواء على التعصب، مجموعة من المؤلفين، دار أمواج، ط1، 1993م، ص 181

40- «les juifs ou les turcs, ne condamnent point les chrétiens derechef, que les chrétiens ne condamnent point les turcs ou les juifs, mais plutôt les enseignent, et attirent par vraie piété et justice», p 29.

الفلسفي والسياسي، إلى حدّ ما، على لغة لوك في التسامح، وإن لم تخل هذه اللغة بدورها من مضمرات البروتستانتية.

وإذا كانت دعوة الأول قد فشلت فقد أفشلها عصره، وإن نجحت الثانية؛ فذلك لأن ظروف العصر قد صارت، إلى حد كبير، وفق ما تمناه كاستيلو ودعا إليه، فما كان يمكن أن يكون سبب فشل لوك أصبح، إلى حد حاسم، هو؛ سبب نجاحه.

ولعل الجرعة القوية لليبرالية؛ هي هذا البروتستانتية (أي كاستيلو)، الذي عانى من تضيق وقمع رؤوس البروتستانتية، الذين كانت لهم الغلبة يومئذ على مستوى القاعدة الاجتماعية، مستندين بسيطرتهم على السلطة السياسية، أو متحالفين معها، إن تعذرت السيطرة، هذه الجرعة؛ هي ما جعلت دعوته صيحة في واد، ولكنها صيحة ستهمز الأوتاد بعد عصره، يوم أصبحت لغة التسامح هي السائدة، في الخطاب والتشريع والممارسة السياسية والمدنية.

لقد تجاوز الخطاب الحقوقي في نسخته الغربية الليبرالية، منذ عقود، سقف خطاب كاستيلو، أو صار به إلى حدوده القصوى، بتوسيع دائرة المشمولين بالاحترام لتضم كل كائن إنساني⁴¹، دون تمييز ديني أو عرقي أو جنسي أو لغوي، واتسع هامشه في الاختيار؛ إذ لم يعد مجبراً على الاختيار بين مذهبين داخل المسيحية، فحرية الضمير أصبحت اليوم أوسع من حرية المعتقد، فصارت خيارات الإنسان أكبر بكثير؛ فله أن يؤمن بأي دين شاء، أو أن يكون لأدرياً أو نفاتياً، مادامت الدولة، وفق الفلسفة الليبرالية، صارت غير معنية بفرض التقيد بدين معين، على أنه الدين الحق مهما كان تعريف ذلك الدين، ومهما كان من يعرفه، وتخلّى هذا الخطاب الليبرالي تشريعاً وثقافة عن كثير من جهاز كاستيلو المفاهيمي المشحون بلغة دينية قذحية: (الهراطقة، وعبدية الأوثان، والكفار، والخراف الضالة، والنعاج، والقطيع، ... إلخ)، لم تعد تتناسب ومنجزاته على مستوى الحقوق الثقافية والسياسية.

وهكذا، فمهما كانت رحابة دعوته، بالقياس إلى عصرها والقرون الثلاثة التي تلتها؛ فهي تظل دون مستوى أفق عصرنا في صيغته الغربية، خاصة وأن كاستيلو مثله في ذلك مثل لوك الذي جاء بعده بأكثر من قرن، رفضا التسامح مع الملحدين⁴²، وفي حالة كاستيلو حتى مع العقلانيين الراديكاليين، ومع لوك حتى مع الكاثوليك المتهمين عنده في ولائهم السياسي لغير دولهم.

41- بل وأصبح هذا المبدأ يشمل احترام الطبيعة والحيوان.

42- عندما كانت تطلق العبارة خلال العصر الوسيط على فرد أو جماعة، لم يكن يعنى بها، في الغالب الأعم، الشخص الذي ينكر وجود الله؛ بل يتهم بها من له تأويل مختلف لأصول العقيدة. فتعريف الملحد مقترن بالسياق التاريخي الذي يندرج فيه، وانتقاله من عصر إلى آخر غير في مدلوله الشيء الكثير.

لكن كاستيللو ظل على إيمانه الإنساني الرافض لعقوبة الموت حتى في حق هؤلاء، ورأى في عقوبة السجن أو الطرد أقصى ما يمكن للسلطة المدنية أن تعاقبهم به⁴³، ولكن في المقابل، ظل اعتقاده جازماً بأن وجود الله ووحدانيته، ونبوة المسيح وبشارته، لا يمكن أن يكونا موضع خلاف أو تجاوز⁴⁴.

ومن الواضح؛ أن المناخ الديني الذي طبع به عصر كاستيللو، وحتى عصر لوك، لم يكن يسمح بإمكانية تصور الفعل الأخلاقي، خارج الدين؛ فالدين أساس الأخلاق، ولن تقلب هذه القاعدة إلا في عصر التنوير، وخاصة مع كانط؛ حيث سيصبح المعيار الأخلاقي مستقلاً عن الدين وسابقاً عنه، وحكماً عليه، ومن ثم، ستتغير النظرة إلى الألوهيين والأدريين والنفاتيين تدريجياً، ويصبح بالإمكان تصور ذات أخلاقية بلا إيمان، أو دون إيمان، على الطريقة التوحيدية.

خلال المسافة الفاصلة بين عصر كاستيللو، وبين عصرنا، تغيرت طبيعة السؤال المطروح، وبدل أن تتساءل مجتمعات اليوم، التي انخرطت في سياق الحداثة السياسية والفكرية والعلمية، عن كيفية التعامل مع الهرطقة، أصبح التساؤل الذي يحمل شرعية المعاصرة التاريخية، هو كيفية تدبير الاختلاف بين المواطنين، والاستفادة من اختلافهم في إغناء هويتهم الفردية، وتنشيط ركائز السلم الأهلي.

وبعد أن كان التنوع مرفوضاً وممقوتاً نظرياً، ومحارباً واقعياً، باعتباره سبب كل البلايا والفتن التي حلت، أصبح التنوع الإنساني مصدر غنى، وصارت الدعوة إلى التوحيد والمجانسة، مصدر خوف ونقد.

نحن بين رسالتين:

غير أنه بالمقابل لا نبالغ إن قلنا أن رسالته لا زالت تحتفظ براهنيتها القصوى، إذا ما تعلق الأمر بالفضاء العربي الإسلامي، الذي لا زال يخرج من رحمه، وبسخاء، كالفينيين؛ هم دون كالفن علماً وزهداً، وفوقه رعباً وسفكاً للدماء.

في خطاب كاستيللو؛ نرى ماضي الغرب القريب، ومستقبلنا الذي لا زال ينتظر التحقق.

43- انظر في: حدود هذا التسامح، لوكليرك، ص ص 430- 444

«castillon ne préconise cependant pas une tolérance sans limite, Il s'en prend a ces athées que sont a ses yeux râblais et Dolet. il estime qu'il n'ont pas leur place dans une cité chrétienne, mais qu'on ne le tue pas, qu'on se content de les expulser» André grounelle, Sébastien castillon un adversaire protestant de Calvin, académie des sciences et lettres, Montpellier 2000, p6.

44- عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الأول من المجلد الثاني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط 1، 2015، ص 288

عاش كاستيلو على إيقاع التناحر والاقتيال بين الطوائف الدينية المسيحية، ونحن نعيش اليوم على إيقاع التجيش الديني القاتل، وهستيريا طائفية وقودها التسييس البراغماتي للانتماء المذهبي، وممارسات بربرية يعتقد أصحابها أنهم كلما توحشوا أكثر تدينوا أكثر.

لا نخفي أن تأملنا في إحدى لحظات عصر الإصلاح الديني، عبر مشاهد من سيرة رجلين، غايتها تقرير كثير من النظائر والأشباه بين ماضي الآخر وحاضرنا نحن.

فدعاة الإصلاح من ذوي النزعة الإنسانية، قلة فينا، وضمن هذه القلة، يوجد من يخشى على نفسه من خطر المجاهرة بكل قناعاته، وما توصل إليه ضميره، ولا يملك إلا القليل من أدوات التواصل والتأثير في المجتمع.

وكثيراً ما تتناسب، طردياً، زيادة النفس الإصلاحي الإنساني في خطابهم، وتراجع حجم امتدادهم واختراقهم (الضعيف أصلاً) للجسم الاجتماعي إلى درجة الغربة.

وكما عاش كاستيلو غريباً ومات غريباً، تعيد الصورة نفسها بيننا، مع ورثة روحه الإنسانية.

وكثيراً ما وصل اليأس ببعضهم إلى تحمل المراجعة الفكرية، في صورة طلاق بائن مع هذا الخطاب الإنساني، والالتحاق بركب القافلة التي ظلوا لعقود، يرون فيها فيروساً قاتلاً.

يدّعي أصحاب القافلة، بدورهم، الإصلاح، ويرونه من صميم الدين، ويرون أنفسهم الأجدر في التسمي به، إلا أنهم يسировون سيرة كالفن، وإن في دين آخر، بعودتهم الحرفية إلى النص مع هدر صارخ للسياقات التاريخية والاجتماعية، وادعاء فهم واحد صحيح للنص هم ملاكه، ورفضهم التسامح مع اجتهادات أخرى بممارسة العنف، المادي أو الرمزي، على أصحابها.

وفي مقابل هذه الحرفية والتملك واللاتسامح، هناك إقبال احترافي على اغتراف أدوات أبدعها منطق، غير المنطق الذي يدعون إليه.

يجري توظيف التقنية ضد المنطق الثاوي خلفها، في التعبئة والتجيش والتهميش، على طريقة كالفن في التوسل بالعامية لتصفية خصومه، في معركة الصراع الفكري ضد الدين، مادياً ومعنوياً.

لقد طلب من كالفن العودة إلى جنيف لإحلال النظام، فأعاد النظام، ولكن على حساب الحرية، في صورة فاشية دينية، تقدس **التجانس المذهبي**، وتسعى إليه **بالقوة**؛ ذلك أنه في جو اجتماعي وسياسي، مطبوع بالفوضى، ويصبح الالتحام والأمن أعز ما يطلب، أما الحرية والتعددية؛ فينظر إليها على أنها؛ علة أو ترف، لا يتناسب مع طبيعة الظرفية.

وأشبهه كالفن السياسي في عالمنا العربي المعاصر ليسوا قلة، ولا فرق بينهم، سوى أنه جاء تحت الطلب، أما هؤلاء؛ فقد فرضوا أنفسهم عنوة، وهو جاءت به سلطته العلمية، وزهده، وهؤلاء جاءت بهم سلطة الجيش، أو الصناديق المزورة، أو الاقتتال الطائفي.

لكنهم في المحصلة، يقايضون، جميعاً، الأمن بالحرية، ودعواهم: (تنازلوا عن حرياتكم لتتعموا بالأمن؛ فالحرية سبب البلاء، والخضوع المطلق هو البلمس الشافي).

إصلاح بمآلين:

يمكن للإصلاح الديني أن يفضي إلى أعلى درجات الأنسنة، كما يمكن أن يفضي إلى أعلى درجات الفاشية، بميلاد أصوليات شديدة الانغلاق، تدعو إلى الاكتفاء بالعودة إلى نقاء الأصل، وقراءته حرفياً، دونما تأويل لعجيبه وغريبه، وأشد من ذلك، المزايدة المحمومة في التمسك بنصوص القتل، والقتال، والصراع، وتقسيم الكوكب الأزرق إلى فسطاطين، ومن ليس مع فسطاطنا؛ فهو ضدننا، مستحل الدم، والعرض، والمال.

والناظر للحالة الأمريكية، يشاهد كلا المآلين مع غلبة واضحة للنزعة الإنسانية في الدين. والناظر لحالنا؛ يلحظ الفريقين مع غلبة كاسحة ثقافياً وإعلامياً، وحتى سياسياً، للإرث الميت والمميت.

في الحالة الأمريكية؛ يتخذ الهجوم الأصولي على حرية التفكير والسلوك، أبعاداً ثلاثة؛ هجوم على العلم، والفن، والحياة الخاصة (الجسد).

يتجسد الهجوم على العلم، في التقليل من القيمة العلمية للنظرية الداروينية، واعتبارها مجرد فرضية تعاني من ثغرات قاتلة، تدعو إلى منع اعتمادها في المقررات الدراسية الخاصة بعلم الحياة؛ بل ووصل الأمر، مع بدايات دخول النظرية إلى الفصول الدراسية الأمريكية، إلى تمثلها كهرطقة في حلة جديدة، وطرد من يدرسها ومحاكمته، ولكن بعد أن فرضت نفسها بقوة الدليل، جرى التحول من المواجهة العنيفة والتشهير بأصحابها ومدرسيها، إلى تركيز الهجوم على النظرية في ذاتها؛ لذلك، دعا أكثرهم دهاء إلى عدم الاكتفاء بتدريسها كنظرية تفسيرية وحيدة في مجالها، وذلك بإضافة نظرية التصميم الذكي، كنظرية علمية لها وجهة نظر مناقضة، حول قضية ظهور الحياة واختلاف الأنواع، غير أنه تبين أن هذه النظرية ليست في جوهرها سوى قصة الخلق التوراتية، وقد شذب سطحها بغرض تجنب مقص الرقابة العلمية والدستورية؛ لأن من شأن اعتمادها رغم زيفها العلمي، وبعد ثبوت جوهرها التوراتي، أن يفسر وفق المعيار الدستوري على أنه تحيز للدين التوحيدي على حساب الأديان الأخرى، وهو ما يناقض الدستور الأمريكي، الذي يؤكد على حياد الدولة دينياً.

أما الهجوم على الفن؛ فيجد آيته في حملات منظمة ضد بعض الأعمال الفنية، وخاصة السينمائية منها، والتي تقدم رواية مختلفة للحدث الديني التأسيسي وأبطاله، اعتماداً على بعض نصوص النقد التاريخي للموضوع، أو أعمال تستلهم نصها من وحي الخيال، ولا تدعي لنفسها تمثيل الواقع.

وفي هذا المستوى؛ يكون العنف أشد، والسبب أن قوة الصورة وحجم انتشارها، أقوى بكثير من حجم انتشار النظريات العلمية؛ لذلك، يكون الغضب أشد، ومن مظاهره؛ إحراق القاعات السينمائية، وتهديد المنتج، والمخرج، وكاتب النص، وأبطال الفيلم بالقتل، وابتزاز المنتجين وإغراؤهم بشراء كل النسخ، أو إتلافها مقابل ثمن مغري، وإنزال الحرم بهم، ورميهم بتهمة التجديف، إن رفضوا الاستسلام للإغراء، إضافة إلى تحريض العامة عليهم عبر القنوات التلفزيونية والإذاعية الأصولية.

ومن عجيب ما يلاحظ؛ أنهم يدعون، في الغالب الأعم، إلى منع أفلام لم يشاهدوها، أو اكتفوا بمشاهد سريعة من الفيلم الإعلاني القصير.

وفي كل الأحوال، يسقطون في فخ التناقض، فإذا شاهدوها فلم حق نقدها، ومقاضاة مؤسسة الإنتاج، إن كان فيها ما يسيء، ولل قضاء وحده سلطة الحسم. أما مشاهدتها، ثم محاولة منع الآخرين بالقوة من مشاهدتها؛ فهي ازدواجية، يحركها منطق الوصاية الأبوية، الذي يقول: "نحن نشاهد نيابة عنكم، ثم نقول لكم ما أنتم فاعلون".

أما إذا رفضوا المشاهدة؛ فالسؤال المعاد، هو: كيف يسمحون لأنفسهم بالتهجم على عمل سينمائي، لا يعرفون عنه شيئاً، ويحذرون غيرهم من مشاهدته؟.

أما الهجوم الثالث: فيستهدف الجسد، ومعه يصل العنف إلى ذراه؛ لأنه يمس القاعدة الأخلاقية التي ينطلق منها الخطاب الأصولي البروتستانتي، في إطار ما يسمى بالدفاع عن "قيم العائلة"، والتي يقدر بموجبها النمط التقليدي للأسرة، وضبط العلاقة بين الجنسين، ونبذ المثلية الجنسية والطلاق، كشروط للحفاظ على قوة أمريكا وعظمتها (إسرائيل الجديدة). ومن ثم، نفهم تلك الشراسة في التعامل مع قضية الإجهاض، وحقوق المثليين، ومن صور هذا العنف؛ رفض استفادة المثليين من مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، وأهمها: مبدأ تكافؤ الفرص في الولوج إلى المناصب العامة، والدعوة إلى تطبيق الحكم التوراتي فيهم، ومباركة من يقتلهم، ولو كان أصولياً إسلامياً.

ومن مظاهر هذا العنف المقدس، نذكر أيضاً: تعنيف الأطباء الذين يقومون بعمليات الإجهاض، وتخريب عياداتهم.

ومن المفارقة؛ أنهم لا يجدون غضاضة في قتل هؤلاء، في الوقت الذي يشنعون فيه أشد التشنيع على من يقوم بالإجهاض، ولو في أسابيعه الأولى، بدعوى حرمان إنسان كامل الإنسانية من حقه في الحياة، مثلما يواجهون، بنفس الحدة، ما يسمى (الموت الرحيم)، سواء اختاره الفرد خلاصاً من الألم والمعاناة بعد يقين طبي من استحالة العلاج، أو في حالات الموت الإكلينيكي، عندما يؤكد الفريق الطبي للأسرة، أن المريض ميت موتاً دماغياً، ولا أمل في حياته.

لكن هذه الممارسات، على خطورتها، تظل في الحالة الأمريكية بمثابة الاستثناء، والقانون الأمريكي يجرمها، ويعاقب عليها، مستنداً في ذلك على الحس العام المتشبع بقيم الديمقراطية، والعقلانية، والحرية، والذي يقف حاجزاً ضد تمددها وشرعنتها.

وهي ممارسات أكثر استثنائية في أوروبا؛ لأن المناعة الثقافية ضد الأصولية أقوى، وهذه الأخيرة؛ أشد ضعفاً من نظيرتها الأمريكية، ومن عوامل قوة هذه المناعة الثقافية؛ تجذر العلمنة الفكرية والسياسية، وسبقها التاريخي من جهة، وحركة الإصلاح العميق التي تمت داخل الكنيسة الكاثوليكية، نتيجة التجذر السابق، في الفترة بين (1962م- 1965م)، بمناسبة انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني من جهة ثانية.

وكانت لقراراته أثار حتى على الكنائس غير الكاثوليكية في أوروبا، وخاصة على التيار التجديدي داخل الكنيسة البروتستانتية، وهو التأثير الذي يعد أحد أسباب تميز البروتستانتية الأوروبية عن مثيلتها الأمريكية.

لقد عد هذا المجمع بمثابة ثورة كوبرنيكية داخل هذا المذهب، نظراً لحجم وطبيعة القرارات اللاهوتية التي خرج بها، ولعل أهمها؛ المصالحة مع العلم (وخاصة نظرية التطور)، وهو ما ترفضه البروتستانتية في نسختها الأصولية، وتقاومه بضراوة، ومن أهم هذه القرارات كذلك، إن لم يكن أهمها على الإطلاق؛ الاعتراف بأن الخلاص هو في متناول جميع مَنْ هم من ذوي الإرادة الحسنة، مسيحيين أو غير مسيحيين، الباحثين بصدق عن الحقيقة، وبأن الإنسان يمكن أن يحقق خلاصه بطرق عدة، لا عبر طريق الكاثوليكية وحدها، كما كانت تذهب إلى ذلك المقولة اللاهوتية القروسطوية، القائلة: (إنه لا خلاص خارج الكنيسة).

وهو ما يعني: الاعتراف بباقي المذاهب والأديان التي تنشد الخلاص، وفق نمطها الخاص في التدين، ومن بينها الإسلام؛ الذي اعترف به كديانة توحيدية، بعد أن كان ينظر إليه كهرطقة من صنع دجال.

ولعله من باب مكر التاريخ؛ أن صرنا أمام انقلاب في الأدوار؛ حيث الكاثوليكية تجسد رمز الإصلاح والتكيف مع تحولات العصر، فيما تجسد البروتستانتية، في صيغتها الأمريكية على الأقل، رمز المحافظة والسباحة في الماضي التوراتي.

لكن واجب الإنصاف يقتضي التذكير مرة أخرى، أن هذه الأصولية المنحدرة من التراث الكالفيني، رغم صخبها الإعلامي، تظل في حالة شذوذ عن قاعدة النسق الثقافي للمجتمعات الغربية اليوم، ومقاومتها فكرياً، وتشريعياً، واجتماعياً ناجحة إلى يومنا هذا.

أما حالنا؛ فهو على النقيض؛ إذ نلمس تحالفاً ضمنياً أو معلناً بين المشرع، والثقافة المحافظة التي تسود أغلب بلدان العرب؛ إذ تجري مباركة هذا العنف بصيغ شتى، وتقدير فاعليه ومشرعنيه، ديناً وقانوناً، والأسوأ من كل هذا، والذي لا نجد له شبيهاً حتى مع الأصولية الأمريكية، ما قد يلحق الفرد المتحول من مذهب عقدي إلى آخر، أو التحول من الإسلام إلى غيره، أو من المسيحية إلى غيرها (في الحالة المصرية مثلاً)، وهو ما يناقض، كما أسلفنا النموذج الأمريكي، الذي يكفل فيه القانون والثقافة السائدة حرية الاعتقاد بأوسع معانيها، بما فيها عدم الاعتقاد، وتمكن صاحب كل معتقد من الشروط القانونية والواقعية التي تتيح له المجاهرة بمعتقده وممارسته⁴⁵، فيما يظل التحول عندنا عملاً سريعاً على المستويين؛ الاعتقادي والعملي معاً، اللهم إلا إذا تم هذا التحول في الاتجاه المقبول اجتماعياً وثقافياً.

لا نخفي فرحتنا من تحول المسيحيين الغربيين إلى الإسلام، ونتلذذ بتعدادهم، وننبهر بحساب الأرباح، وننسى الأهم، وهو؛ أن هذا التحول ما كان ليتحقق، اليوم، دون خسائر مادية، لولا تحرر الضمير الفردي على أرضية علمانية، وهي الأرضية التي لا زلنا نحاربها، في الوقت الذي نستفيد من عطايها، إذا تعلق الأمر باستقبال المتحولين إلى الإسلام، فيما يظل التحول المضاد محفوفاً بخطورة بالغة.

ولنا أن نتخيل كيف سيكون الوضع، اليوم، لو كان جزاء التخلي عن المسيحية؛ هو القتل، عملاً بحديث افتراضي، يقول: "من بدل المسيحية فاقتلوه".

التاريخ بالاعتبار:

يعيش الوطن العربي محنة ثقافية متفاوتة الخطورة بين بقاعه، عنوانها الجامع، هو ذلك التباين الملحوظ في موازين القوى بين قلة مستضعفة، تدعو إلى تحرير الضمير الفردي من سطوة السلطة والجمهور، وبين جمهرة بسند سياسي رسمي صريح أو ضمني، ترى في نفسها سيف الله في الدنيا تصدر الحكم وتنفعه، فإن تبين الخطأ في الدماء، بعد نفاذ الحكم، كان الفاعل مأجوراً في اجتهاده، والضحية من المحسوبين في عداد الشهداء، وفي المعجم الديني مادة وفيرة للباحثين عن مخرج يشعر صاحبه بالأمن والرضى.

45- من الناحية القانونية؛ نقرأ في التعديل الأول من الدستور الأمريكي، ما يلي: «لا يصدر الكونغرس أي قانون خاص، بإقامة دين من الأديان، أو يمنع حرية ممارسته، أو يحد من حرية التعبير، أو الصحافة، أو من حق الناس في الاجتماع سلمياً، أو في مطالبة الحكومة بإنصافهم من الإجحاف».

ولنتذكر من باب الاعتبار بالماضي، أن معركة صفين التي أودت عشرات الألوف من الأرواح، جرى التعامل معها من طرف أغلب المتكلمين والفقهاء السنة، باعتبارها فتنة لا بغياً، تتم عن حسن الطوية من القائدين؛ اجتهد أحدهما؛ فأصاب (علي). واجتهد ثانيهما؛ فأخطأ، وكلاهما مأجور بهذا المعنى.

إن حديثنا عن كالفن، حديث عن تعثر الإصلاح الديني عندنا، سواء بعدم الانخراط فيه ابتداءً، أو اتخاذ وجهه تعاكس روحه عوض أن تعكسها؛ فبعض تجسّدات الإصلاح الديني في موقفها من العقل، والعلم، والحرية، يمكن أن تكون في عنفها ولا تسامحها، أسوء من الوضع المذهبي الذي جرى نقده، ونبذه، والخروج منه.

إن أخطر ما كرسته العقيدة والممارسة الكالفينية؛ هو تحويل العنف السلبي التطهيري، إلى عنف هجومي؛ فعوض أن يتمثل العنف الواقع على الذات كوسيلة لتطهيرها، كما كان صلب المسيح وسيلة لخلص البشر، أصبح العنف النازل على المخالفين؛ هو الأداة المثلى لتطهير الأرض منهم، وإحلال المذهب الحق دون منافس.

وفي حديثنا عن كاستيللو؛ حديث عن نزعة إنسانية في الدين، لا ضده أو خارجه، نزعة تحققت تدريجياً في الغرب، ولا تزال عندنا مطلباً ينتظر التحقق.

ومن المؤسف؛ أننا عرفنا بعض مميزات هذه النزعة (قبل وأدها) في عصر الفكر النهضوي العربي، وكانت مميزات واعدة لو كتب لها أن تسير إلى حدودها الفكرية والسياسية القصوى.

بيد أن الوضع السياسي كان حاسماً في توفيره لشروط ومبرر العودة إلى ثقافة كانت موضوع تجاوز لدى مفكري النهضة؛ فحق للمؤرخ والمتقف الملتزم أن يرى في ذلك نكوصاً ما فتى يتزايد إلى يوم الناس هذا.

وحق له أن يرى في كتابات الطهطاوي، وعبد، والأفغاني، وهي بنت النصف الثاني من القرن 19 تنويراً⁴⁶، صارت به النزعة الإحيائية إلى عكس وجهته المتوقعة؛ فبدل مزيد من العقلانية والانفتاح والتسامح، تبنت الإرث الثقافي الذي كان أحد علل ظهور الفكر النهضوي، وكان غليون محقاً عندما رأى في هذه الأصولية: "تنويراً لإجهاض الإصلاح الديني"⁴⁷، والذي يجد مبرره في المعضلة السياسية.

46- نشاط عبد الله العروي، رأيه في ضرورة التمييز بين مضامين الفكر النهضوي، التي أصبحت متجاوزة، في أغلبها، وليس من الحس التاريخي في شيء، استعدادها من باب التقليد الحرفي، وإلا سقطنا في أصولية من نوع جديد. وبين موقف النهضويين المتصف بالجرأة على الاجتهاد، واعتباره واجباً دينياً، ووطنياً، وأخلاقياً، وهو الموقف الذي لا زلنا في حاجة إليه. انظر حول هذه النقطة: عبد الله العروي، إرث النهضة وأزمة الراهن، ضمن كتاب، عصر النهضة، مقدمات ليبرالية للحدث، مجموعة من المؤلفين، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2000م، ص 281.

47- برهان غليون، نقد السياسة، ص 204

يقول العروي: (لو نجح إصلاح النهضة لما تم الاحتلال)⁴⁸، ونحن نقول على منواله: (لو نجحت الدولة الوطنية في مشروعها التحديثي، لما بزغت الأصولية، أو لظلّ نجمها خافتاً).

ذلك أن الأصولية إنما استمدت قوتها من الوضع الذي فشلت فيه الدولة في الوفاء بشعاراتها، وهو الفشل الذي تزايدت وطأة الإحساس الاجتماعي به، مع تزايد الرهان على الدولة في توفير الخدمات الأساسية، وضمان حقوق المواطنة السياسية والمدنية.

صحيح أنه قل أن يخلو بلد من هذا النمط المتطرف في الفكر والممارسة، ولكن الفرق الأساس بين البلدان الناجحة، سياسياً واقتصادياً، وبين الفاشلة، ليس في تملك تراث عنيف من عدمه، فكثيراً ما يشتركان في نفس الموروث، وتختلف النتائج.

لكن الفارق كامن في أنه في ظل هذا النموذج الأول من الدول، يظل هذا الخطاب ضعيفاً من حيث قاعدته الاجتماعية، وحجم تأثيره في صناعة القرار السياسي، وأكثر ما يمكن أن يحققه، عبارة عن مكاسب سياسية وإعلامية ظرفية وعابرة. أما النموذج الثاني؛ فتصبح فيه أصولية التنظيم امتداداً بالفعل لأصولية بالقوة، كامنة في المجتمع، بفعل خلل بنيوي في النظام الاجتماعي.

أي هناك محددات اجتماعية، واقتصادية، وسياسية بغطاء ثقافي، تضمن له الغلبة العددية، فيما يجد الخطاب التنويري والعقلاني، في هذه العوائق، حاجزاً أمام معانقته للجماهيرية؛ إذ إن الأوضاع غير الطبيعية من زاوية مرحلة تاريخية، عادة ما تنتج خطاباً غير سوي، وقلماً تخلفت هذه العادة.

فلا جرم أن يجري التأكيد على أن الركيزة الاقتصادية، هي من الشروط المؤسسة للتحول نحو مجتمع ديمقراطي، ذلك أن الفقر، والمرض، والبطالة، والندرة؛ هي محددات تسهم، إلى حد بعيد، في نمو شخصية غير سوية، لا تحتاج إلى كبير جهد لتتحول إلى شخصية متعصبة، خاصة بعد أن يجري استدعاء وتوظيف نوع من التراث على مقاس واقعها، فتجد فيه سلاحها، والذي يناسب طبيعتها المطبوعة اجتماعياً، وهو ما يزودها بشعور ما بالحميمية والقرب من هذا التراث، يغني عن أية مجاهدة فكرية قاسية في استبطانها. عكس الفكر الحديث؛ الذي أقصى ما يفعله في محيط منكوب اقتصادياً واجتماعياً، بفعل المأزق السياسي، هو أن يغير القشور؛ حيث يصبح جزءاً من حادثة سطحية مشوهة، تكفي باستيراد النتائج والمنتجات، عوض العمل على استنبات المقدمات والأصول.

48- عبد الله العروي، إرث النهضة وأزمة الراهن، ضمن كتاب عصر النهضة، مقدمات ليبرالية للحدثة، مجموعة من المؤلفين، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2000م، ص 279

صحيح أننا في حاجة إلى إصلاح ديني عميق، يجعل من عملية استحضار النصوص القاتلة مهمة صعبة، ولكن هذا الإصلاح، ليس وحده، الكفيل بنجاح المصالحة مع قيم العصر، حتى ولو أنجزت هذه المهمة باقتدار، مادامت الوقائع الحالية تحفز على السباحة في هذا الماضي المميت، فليس فقط (المنطق، والعقل، وقوة الدليل) هي ما ترجح الميل لقراءة على حساب الأخرى؛ فهناك المنفعة، والسمت المشكل اجتماعياً أيضاً.

لقد كتب زفايغ عن (كالفن وكاستيلو) وعينه على النازية، التي تمددت بسرعة غير طبيعية، والتي تقف وراءها أوضاع ألمانيا الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية بعد الحرب العالمية الأولى.

لم يولد هذا الشر ويسيطر تحت تأثير مباشر للنقاشات والكتابات، الفكرية، والعلمية والفلسفية لغوبينو، وتشامبرلين، وفاجنر، ولانجبين، والتي شكلت الأساس المذهبي للنازيين؛ بل كانت الوقائع الملموسة هي المحدد في استحضار هذه الأفكار النخبوية؛ بل والهامشية، واعتمادها كأساس نظري مطابق للواقع، وكمحرك لتعبئة الألمان في سبيل إنقاذ الوطن.

وها نحن اليوم، نعيد الكتابة عنهما، وعيوننا على التمدد المخيف، فكرياً وجغرافياً، للداعشية الصريحة وشبه الصريحة.

إن الفكر الداعشي، والممارسة الداعشية، يجسدان اليوم أعلى مراتب الأصولية، من حيث درجة استدعاء التراث المميت للآخر، ومن حيث التشبث، بشكل تاريخي، بالتنظيم السياسي، باعتباره شكلاً مقدساً فوق التاريخ، ومن حيث موقعة النموذج المثال، بشكل مطلق، في الماضي، وفي تناقض حاد مع الفكر النهضوي السابق عنه بأكثر من قرن ونصف، والذي كان يوضع، متأثراً في ذلك بالنزعة التاريخية التطورية، النموذج المثال في مستقبل ينبغي أن ينجز لا في ماض ناجز.

إن أهم وأخطر نقطة اشتراك بين النازية والداعشية؛ هي تراثهما الرجعي القاتل، وقد جرى حمله على أكتاف آخر صيحات تكنولوجيا الدعاية، والمراقبة، والتدمير.

هذه الداعشية: هي، بالأساس، نتاج فشل سياسي داخلي في تحقيق عملية التحول الديمقراطي، وترسيخ فكرة المواطنة، وفشل بناء مشروع تنموي وطني مستقل، على أرضية هذا النموذج الديمقراطي.

إن الفشل السياسي الخطير لبعض البلدان العربية المعاصرة، له المسؤولية المباشرة عن ميلاد الأصولية العنيفة من الداخل، وبلوغها هذه الدرجة غير المسبوقة من الوحشية، وهو (أي هذا الفشل)، الذي سمح بفتح المجال للتحالف القاتل بين هذا التطرف الداخلي، وتطرف خارجي عابر للدول، في صيغة أفكار وفتاوى،

وهجرات بشرية، نحو أرض معركة أبطالها البارزين؛ هم حماة استبداد، قائم تحت لواء علمانية غير ديمقراطية من جهة، وأصوليون يسعون إلى استبداد بديل، تحت لواء دولة دينية معادية للديمقراطية كذلك. فالجامع بينهما، إذن، رغم دعاوى الاختلاف الفكري؛ هو الاتفاق على معاداة النظام الديمقراطي، الذي هو، وحده، الضامن لحرية التنظيم، والتعبير، والاعتقاد، والمشاركة، الفاعلة في قضايا الشأن العام. لذا، كان النضال من أجل هذا النظام الديمقراطي المنبوذ من الفريقين؛ هو واجب الوقت.

لائحة المراجع

- André grounelle , Sébastien castillon un adversaire protestant de Calvin, académie des sciences et lettres, Montpellier, 2000.
- Sébastien castillon, traité des hérétiques, édition nouvelle chez .A JULIEN, LIBRAIRE – EDITEUR AU BOURGE – DE – FOUR, 1913.
- J. ROUQUETTE, LES VICTIMES DE CALVIN, PARIS LIBRAIRE BLOUD ET CIE, 1906.
- Charles bost: Sébastien castillon et l'opposition protestante contre Calvin, revue générale 1914.
- jean Calvin, la reforme a Genève et les débuts de le reforme en France, édition reformed online, 2004.
- *Gilbert VINCENT*, LIBERTE DE CONSCIENCE, TOLERANCE ET PROTESTANTISME in La liberté de conscience dans le champ de la religion, eds patrice meyr-bich, Jean-Bernard marie, institut interdisciplinaire d'éthique et des droits de l'homme. Université fribourg, 2002.
- جون لوكليرك، التسامح في عصر الإصلاح، ترجمة: جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009.
- ستيفان زفايغ، عنف الدكتاتورية، ترجمة: فارس يواكيم، دار الفرات، ط1، 2013م.
- بريان باري، الثقافة والمساواة، ترجمة: كمال المصري، عالم المعرفة، ع 382، 2011.
- كوينتن سكينر، أسس الفكر السياسي الحديث، الجزء الثاني، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، 2012م.
- ج.ج. روسو، دين الفطرة، تعريب، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2012م.
- إريك هوفر، المؤمن الصادق، ترجمة: غازي القصيبي، منشورات كلمة، 2010م.
- عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، الجزء الأول من المجلد الثاني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط1، 2015م.
- برهان غليون، نقد السياسة: الدولة والدين، المركز الثقافي العربي، ط4، 2007م.
- أضواء على التعصب، مجموعة من المؤلفين، دار أمواج، ط1، 1993م.
- عبد الله العروي، إرث النهضة وأزمة الراهن، ضمن كتاب، عصر النهضة، مقدمات ليبرالية للحدثة، مجموعة من المؤلفين، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000م.
- الكتاب المقدس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960م.

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط - أكدال، المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com